الوقف والسكت في العربية وأثرهما في النحو

د. عمار ربيح
جامعة محمد خيضر بسكرة (الجزائر)

Abstract:
The pause is a phonetic phenomenon that comes from the transmitter and facilitates speech. It has an effort-saving purpose with respect to sound production, and thus it calls upon grammatical or rhetorical functions. It can also occur for aesthetic purposes when it comes at the end of the proposition. For its part, *es-sekt*is shorter than the pause, and it is often found in the Qur'an, in poetry, or in mere conversation. The aim of this article is to deal with these two phenomena and their impact on the grammatical aspect of language.

Keywords: Pause, grammar, Qur'an, poetry, grammatical aspect

الملخص:
الوقف ظاهرة صوتية، يأتي به المتكلم لتيسير أدائه إذا طال الكلام، وقد يكون أيضا لدواع غير الاقتصاد في الجهد فيؤدي وظائف نحوية أو بلاغية، وقد يكون أيضا لغايات جمالية إذا كان في نهايات الجمل المتوالية. والسكت أقل زمنا من الوقف له مواقعه إن في القران الكريم أو في الشعر العربي أو في الكلام العادي، والمقال يسلط الضوء على هاتين الظاهرتين الصوتيتين ويبين أثرهما في بعض الوظائف والمواقع النحوية.

الكلمات المفتاحية: الوقف، السكت، النحو، القرآن، الشعر، الوظائف النحوية.

1/ الوقف عند القراء:

من أكثر الظواهر الصوتية التي استرعت اهتمام النحاة والقراء على السواء منذ القديم، ظاهرة الوقف لارتباطها أساسا بالقرآن الكريم، ولما لها من أهمية وأثر كبير في المعنى، وقد تصدى النحاة والقراء لهذه الظاهرة بالبحث والتأليف، ودفعهم إلى هذا حرصهم الكبير على تعلم لغة القرآن وحفظه كما نزل على النبي(ﷺ) وكما قرأه هو ورواه عنه الصحابة، وفهم مقتضياته الشرعية فهما دقيقا، قال النكزاوي:" باب الوقف عظيم القدر جليل الخطر، لأنه لا يتأتى معرفة معاني القرآن، ولا استنباط الأدلة الشرعية منه إلا بمعرفة الفواصل"[(1)]، وهو يعني بذلك حدود الفواصل التي يضبطها الوقف، ولقد حرصوا عليه كل الحرص، وكانوا يتعلمون الوقف كما يتعلمون القرآن، فقد روى عن ابن عمر(ﷺ) أنه قال:" لقد عشنا برهة من دهرنا وإن أحدنا ليؤتى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة على النبي(ﷺ) فنتعلم حلالها وحرامها وأمرها وزاجرها وما ينبغي أن يوقف عنده منها"[(2)].

ولما كان الوقف بهذه الأهمية الكبيرة فقد اشترط الكثير من علماء السلف على المجيز ألا يجيز أحد إلا بمعرفته الوقف والابتداء. والوقف عند أهل الأداء قطع النفس بالقراءة للتنفس والاستراحة، قال ابن الجزري في النشر:" لما لم يكن القارئ أن يقرأ السورة أو القصة في نفس واحدة لم يجز التنفس بين كلمتين في حال الوصل، بل ذلك كالتنفس في أثناء الكلمة وجب حينئذ اختيار وقف التنفس والاستراحة، وتعين ارتضاء ابتداء بعد التنفس والاستراحة، وتحتم فلا يكون ذلك مما يخل بالمعنى ولا يخل بالفهم إذ بذلك يظهر الإعجاز ويحصل القصد"[3].

وقال السيوطي في تعريفه:" هو قطع الصوت عن الكلمة زمنا يتنفس فيه عادة بنية استئناف القراءة لا بنية الإعراض ويكون في رؤوس الآي وأوسطها، ولا يأتي في وسط الكلمة ولا فيما اتصل رسما"[4].

واختلف أئمة وعلماء القراءة في أنواع الوقف وأقسامه، فعدها ابن الأنباري ثلاثة وهي: التام والحسن والقبيح. فالتام الذي يحسن الوقف عليه ولابتداء بما بعده، ولا يكون ما بعده متعلقا به، والحسن الذي يحسن الوقوف عليه ولا يحسن الابتداء بما بعده، والقبيح هو الذي ليس بتام ولا حسن، كالوقف على بسم الله، وعد السجاوندي أقسامه خمسة، فقال:"... الوقف على خمسة مراتب، لازم ومطلق وجائز ومجوز به ومرخص بضرورة"[5]. وقسمه ابن الجزري إلى اختياري واضطراري[6]، ولكن الذي عليه أكثر الأئمة هو أن الوقف أربعة أقسام: تام مختار وكاف جائز وحسن مفهوم وقبيح متروك"[7].

1- 1- الوقف التام: هو الذي لا يتعلق بشيء مما بعده، فيحسن الوقف عليه والابتداء بما بعده، ومن مواقعه عند رؤوس الآي، وآخر كل قصة، وعند الأحزاب والأنصاف والأرباع والأثمان... وقبل النداء. وقبل الأمر...

1- 2- الوقف الكافي: وهو ما يكون منقطعا في اللفظ متعلقا في المعنى، يحسن الوقف عليه والابتداء بما بعده[8]، ومن موضعه رأس كل آية بعدها لام(كي) و(إلا) بمعنى لكن و(إن) الشديدة المكسورة، وبين المعطوفات.

1- 3- الوقف الحسن: وهو الذي يحسن الوقوف عليه ولا يحسن الابتداء بما بعده، لتعلقه به في اللفظ والمعنى كالحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم، فالوقف على(الحمد لله) حسن ولكن البدء(رب العالمين) لا يصح، لأنه مجرور والابتداء بمجرور قبيح، لأنه تابع[9].

1- 4- الوقف القبيح: وهو الذي لا يفهم منه المراد، لأنه قد يقع في موضع لا تجوزها قواعد النحو، مثل الوقف على الموصوف دون الصفة، إلا إذا كانت الصفة على نية القطع[10]، أو على البدل دون المبدل منه، أو على المعطوف دون المعطوف عليه أو الوقف على القول ثم الابتداء بمقول القول نحو:" لقد كفر الذين قالوا، ثم يوقف ويبتدأ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ**﴾[11]. وقد عده السيوطي أقبح الوقف، ومن تعمد معناه، وقصده، فقد كفر[12]. ولا يوقف عليه إلا اضطرارا أو ضرورة كانقطاع النفس أو غيره.

2/ الوقف والنحو:

لقد ارتبط الوقف بالنحو ارتباطا وثيقا، فكثير من أحكام الوقف يرجع فيها إلى أقوال النحو وضوابطه وتعليلاته، ولقد أقر المقرئون بالزام أن يجيد القارئ للقرآن النحو وأحكامه، حتى يتبين مواقع الوقف، كما أن عليه إجادة فنون كثيرة،" قال أبوبكر بن مجاهد: لا يقول بالتمام في الوقف إلا نحوي عالم بالقراءات عالم بالتفسير والقصص، وتخليص بعضها من بعض، عالم باللغة التي نزل بها القرآن"[13].

وهو ما جعل ابن الأنباري يوثق الصلة بين النحو والوقف فيقول:" لا يتم الوقف على المضاف دون المضاف إليه، ولا المنعوت دون نعته، ولا الرافع دون مرفوعه وعكسه، ولا الناصب دون منصوبه وعكسه، ولا المؤكد دون توكيده، ولا المعطوف دون المعطوف عليه، ولا البدل دون المبدل منه، ولا إن أو كان، أو ظن وأخواتها، دون اسمها،

ولا اسمها دون خبرها، ولا المستثنى منه دون الاستثناء، ولا الموصول دون صلته اسميا أو حرفيا، ولا الفعل دون مصدره ولا الحرف دون متعلقة ولا شرط دون جزائه"[14].

وللنظر إلى الوقف وما له من أهمية في تحديد المعاني في بعض آي القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ **وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ**﴾[15] فالوقف ثم الابتداء(قَيِّمًا)، ولم يوقف على(عوجا) لتوهم المستمع أن(قَيِّمًا) صفة للعوج، والعوج لا يكون قيما. ومنه كذلك قوله تعالى: ﴿ **وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ**﴾[16]. بالوقف ثم الابتداء(**إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا**)، لئلا يتوهم أن الأخيرة هي مقول القول، والمعنى معها لا يستقيم، بل الأولى أن تكون مستأنفة[17].

ولقد أكد بعض العلماء الوقف على قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦ**﴾[18] والابتداء بقوله(**وَهَمَّ بِهَا**) وذلك للفصل بين الخبرين[19]، أي أن الواو في الآية استئنافية وليست عاطفة، لأنها لو كانت من العطف، لكان يوسف وامرأة العزيز مشتركين في الإثم، إذ إنه همَّ بها تماما كما همّت هي به، ولكنه(عليه السلام) هم بدفعها، على تقدير مضاف محذوف، بينما همت هي بالفاحشة، ومن مواضع الوقف الواضحة، قوله تعالى: ﴿ **يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَا** ﴾، بالتوقف ثم الابتداء ﴿ **وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِ**﴾[20] فالفصل بينهما بالتوقف يعني الفصل بين أمرين، يوسف أعرض بالإعراض وهو الصفح الجميل، والمرأة أمرت بالاستغفار لذنبها، لأنها همت بالفاحشة فوجب الاستغفار منها.

وعن أبّي بن كعب وعائشة وعروة بن الزبير وغيرهم أنه يجب الوقف على(إلا الله) من قوله تعالى: ﴿ **وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ** ﴾ ثم الابتداء ﴿ **وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ**﴾[21]، على معنى أن الراسخين في العلم لا يعلمون تأويله، فيكون الواو للاستئناف، والراسخون مبتدأ وجملة(يقولون) خبره، إذ علم التأويل فاختص به الله(عز وجل)[22].

ومما تبدو فيه علاقة النحو بالوقف ظاهرة بينة ذات أثر كبير في تحديد موضعه، قوله تعالى: ﴿ **قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُۖ** ﴾ بالوقف ثم الابتداء ﴿ **ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡ**﴾[23] فالوقف على(عليكم) بين أن الظرف(اليوم) متعلق بالفعل(يغفر) وليس متعلقا باسم(لا)، والسبب في ذلك أنه لو تعلق بـ(تثريب) لصار اسم(لا) عاملا في الظرف أي أنه حينئذ يكون شبيها بالمضاف فيجب نصبه وتنوينه فيقال(لا تثريبًا)، كما أننا نجد في القراءة إبرازا وضغطا على (اليوم) ليصير المعنى، أنه لا تثريب على ما مضى من جرمكم، فإن المغفرة حاصلة لا مجال هذا اليوم. أما حين الوقف على اليوم، فإن جملة(يغفر الله لكم) تصير جملة دعائية فيها رجاء بالمغفرة على ما مضى من الذنوب.

ونختم هذه النماذج التي قدمناها عن أثر النحو في تحديد موقع الوقف، واستلزامه له للوقوف عل المعنى المراد من الآيات القرآنية، بقوله: ﴿ **وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا**﴾[24] بالوقف ثم الابتداء(سُبْحَانُه): وذلك لأن الله تعالى قد أخبر عن زعمهم ذاك، أنه اتخذ ولدا، ثم ردّ قولهم ونزه نفسه عن هذا الزعم[25]، بقوله(سبحانه)، ولو لم يوقف لتوهم المستمع أن عبارة(سبحانه) فيها مدح للولد وتعظيم له.

لقد أجمع علماء النحو والقراءة على تحديد مواضع الوقف، لأهميته وما يترتب عليه من معان وأحكام، ولذلك لا يجب التعسف في أداء هذه الظاهرة الصوتية، ولقد نبه إلى ذلك ابن الجزري حين قال:" ليس كل ما يتعسفه بعض المعربين أو يتكلفه بعض القراء أو يتأوله بعض أهل الأهواء مما يقتضي وقفا وابتداء، ينبغي أن يتعمد الوقف عليه، بل ينبغي تحري المعنى الأتم والوقف الأوجه"[26]. وتجنبا لتلك المخاطرة بالمعنى فقد آثر كثير من العلماء الإقتداء بسنة النبي(ﷺ) في الوقف، وهو على رؤوس الآي. وقال أبو عمرو بن العلاء :" وهو الأحب عندي"[27]- لحديث النبي(ﷺ) عن أم سلمة(رضي الله عنها)، الذي رواه أبو داود:" أن النبي(ﷺ)، كان إذ قرأ قطع قراءته آية آية، يقول: بسم الله الرحمنَ الرحيم ثم يقف الحمد لله رب العالمين ثم يقف الرحمن الرحيم ثم يقف"[28].

وحصر النحاة بحوثهم للوقف في بحث أحوال الحركة الإعرابية عند أواخر الكلم حال الوقف عليها، ولذلك فإنهم لم يتناولوه لوظيفة دلالية، بل كاد يكون أمرا مقصورا على صورة وشكل الكلمة حال الوقف عليها، وقد بحثوه في باب مستقل من أبوابهم عنوا فيه بشرح الطرق المتعددة التي يجوز لنا أن نتبعها في الوقف على كلمة من الكلمات، فالوقف " من سنن العربي في حديثه في آخر الجملة، ليدل على معنى معين، وقد يضطر إلى الوقوف قبل انتهاء الكلام لانقطاع النفس"[29]. وعرفه الأنطاكي بقوله:" هو السكون على الآخر اختيارا لجمله آخر الكلام"[30].

كان للعرب مذاهب وطرق شتى في حال الوقف، اختلفت باختلاف لهجاتهم وعاداتهم في النطق، ولكن الذي عليه الجميع، والذي هو أصل الوقف، أن الوقف لا يكون إلا بسكون، فإذا كانت الحاجة إلى الحركة كبيرة لوصل الكلام، فإن الوقف قطع لهذا الوصل، وإذا استعملت الحركة للوصل فإن ما يستعمل للقطع هو نقيضها ونقيض الحركة هو السكون، ومن طرق الوقف عندهم:

2- 1- الوقف بدون تغيير: وهو أن تقف على كلمة دون أن تجد نفسك مضطرا إلى أن تغير شيئا من بنيتها، ولا يكون ذلك إلا في الكلمات الساكنة الآخر نحو: لمْ يجتهدْ- من جاءكمْ- عمنْ- أجلْ.

2- 2- الوقف بالحذف: وهو أن تحذف من الكلمة صوتا واحدا أو أكثر، من أجل الوصول إلى الساكن، فمن حذف الصوت الواحد، حذف الحرف أو سلب الحرف الأخير حركته ليبقى ساكنا نحو: هذا الرجل، هذا الرجل، وهو ينطق على الحركات جميعها ومن حذف الصوتين، حذف التنوين والحركة من الحرف المرفوع أو المجرور نقل أقبل زيد وبالتوقف أقبل زيد.

2- 3- الوقف بالإبدال(القلب): وهو أن تبدل آخر الصوت من أصوات الكلمة صوتا آخر، له أشكال متعددة منها، إبدال تنوين المنصوب ألفا مثل: رأيت زيدًا، وفي الوقف، رأيت زيدا.

قال ابن مالك في الألفية:

تنوينًا إثرَ فتحٍ اجعلْ ألفا * * * وقفا أو تلوَ غيرِ فتحٍ احذفا[31]

وقد روي عن قبيلة ربيعة أنهم يقفون على النون أيا كانت حركته بالسكون.[32]

ومن صوره لذلك إبدال تاء المؤنث مثل: هذه فاطمة، في الوقف: هذه فاطمتْ، وقد يحتفظ بهذه التاء وينطبق بها ساكنة، وقبل أنها لغة في(حِمْيَر)، وقد روي عن قائلهم: يا أهل سورة البقرتْ، فأجيب، ما أحفظ فيها آيتْ[33].

وربما يكون من بقايا هذه اللغة، ما ينطق به أهل الشرق في بعض الأسماء المؤنثة من إثبات تائها فهم يسمون من بهجة بهجتْ، ومن عزة، عزتْ، وطلعة طلعتْ، ومن مدحة، مدحتْ، وغيرها...

وأما الألف ففيها لغات، فقد تحذف من(ها) التأنيث وهي لغة(حِمْيَر)، فهم يقولون:" الكرامة ذات أكرمكم الله به"[34] أي بها بحذف الألف، وقد تبدل هذه الألف الهمزة في لغة، يقال في ضربها، ضربهأ، وحكى ابن جني أن بعضهم يقول:" رأيت رجلأ"، فيهمز لأنها وقعت آخرا[35]، وقد تبدل واوا أو ياء في مثل: لدغتني أفعي، وهذه عَصو. وقد تبدل الهمزة ألفا في مثل الكلا من الكلأ. أو النبا من النبأ.

2- 4- الوقف بالزيادة: وهو أن تزيد هاءً ساكنة تدعى هاء السكت على نهاية الكلمة التي تريد الوقف عليها، إما لأنك لا تستطيع حذف حركتها أو إسكانها كقولك: بوعدك فِهْ، بدل(فِ)، وإما لغرض آخر هو إظهار اللوعة والتفجع أو التوجع في الندبة تقول: وا ولداهْ، وا مصيبتاهْ، وفي المشهور(وا معتصماهْ)، وقد تزاد هاء السكت في الأحرف مثل: مثل ممهْ، علامهْ أو في الأسماء منها ورد في القرآن الكريم: ﴿ **مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ** ﴾[36] أو في الأفعال ومنه في القرآن الكريم: ﴿ **فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ**﴾[37]،﴿ **لَمۡ يَتَسَنَّهۡ**﴾[38].

2- 5- الوقف بالإشباع: وهو مذهب بعض القبائل العربية التي كانت تمطل الحركات وتشبعها، فإذا وقفوا على المرفوع أطالوا ضمته فإذا هي واو، وإذا وقفوا على المكسور أطالوا كسرته فإذا هي ياء: في نحو: خالدُ- خالدو- خالدِ- خالدي واللغة منسوبة إلى قبيلة الأزد[39].

2- 6- الوقف بالتضعيف: وسلك قوم آخرون مسلكا مغايرا للأول وهو أن يضعّف آخر الكلمة الموقوف عليها، فيقولون: جاء خالدُّ ومررت بخالدِّ ورأيت خالدَّ، ويشترط في هذا الحرف الأخير أن يكون هو وما قبله متحركين، لئلا يؤدي تشديده إلى التقاء الساكنين، وقد نسبت هذه اللغة إلى بني أسد[40].

2- 7- الوقف بالنقل: وهي لهجة منسوبة إلى تميم، حيث إنهم كانوا يقفون على الاسم الذي سكن ما قبل آخره بنقل حركة الآخر إلى ما قبله وكأنهم اختاروا هذه الطريقة لتفادي اجتماع الساكنين، مع أن أكثر العرب كانوا يقفون عليه بالسكون رغم اجتماع الساكنين، وهو من المواضع التي جوز فيها الالتقاء فكانوا يقولون: في بكْرْ- بكُرْ، ويشترط النحاة البصريون أن تكون الحركة المنقولة كسرة أو ضمة، على خلاف الكوفيين الذين يجيزون النقل في جميع الحركات[41] غير أنهم يرفضون هذا النقل في الكلمات التي كسرت فاؤها أو ضمت نحو: قُفْل فلا يقال قُفِل، ولا في صبْرْ- صبُرْ[42].

2- 8- الرَّوْم: وهو تقصير الحركة إلى أقصى حد ممكن، وقد أجازه سيبويه في الحركات الثلاث الضمة والكسرة والفتحة، ومنعه الفراء وبعض القراء، قال السيوطي:" قال ابن الجزري: يختص بالمرفوع والمجزوم والمضموم والمكسور، بخلاف المفتوح لأن الفتحة خفيفة إذا خرج بعضها خرج سائرها، فلا تقبل التبعيض."[43]

2- 9- الإشمام: وهو وقف بالإسكان يصحبه ضم الشفتين إشارة إلى حركة من غير النطق بها، وهو مختص بالضمة[44].

هذه إذًا هي حالات الكلمات عند الوقف عليها وعددها تسع على الأرجح والأكثر، وقد أخذ منها القراء واستعملوها مصطلحات للوقف في القراءة مع بعض الإضافة والتغيير في الأسماء، قال السيوطي:" للوقف في كلام العرب أوجه متعددة، والمستعمل منها عند أئمة القراءة تسعة: السكون والروم والإشمام والإبدال والنقل والإدغام والحذف والإثبات والإلحاق"[45]، وهي كما نرى مما اختاره القراء في قراءة القرآن واستبعدوا منها ما كان لهجة ضيقة لم يرد نظيرها في كتاب الله(ﷻ).

وقد نجد النحاة ينسجون أحكاما خاصة في الوقف على بعض الكلمات التي يتعرضون لها كالوقف على المقصور أو المنقوص أو المضاعف أو المعتل، ولكنها جميعا لا تخرج من هذه الأحكام التي أوردنا.

3/ السكت:

على رغم من أن النحاة لم يعتنوا كثيرا ببحث هذه الظاهرة الصوتية، وما تؤثره في الأبواب النحوية لكنهم ربما كانوا يشيرون إلى ذلك من خلال بيان الوقف في الآيات القرآنية، غير أن سنبدأ من هذا المبحث، في التفريق بين ما يعرف بالوقف وما يمكن أن يسمى بالسكت(Pause). وقد أشار السيوطي إلى ثلاثة مصطلحات استعملها القراء، هي القطع والوقف والسكت، فقال:" الوقف والقطع والسكت عبارات يطلقها المتقدمون غالبا مرادا بها الوقف، والمتأخرون فرقوا فقالوا:" القطع عبارة عن قطع القراءة رأسا، فهو كالانتهاء... والوقف عبارة عن قطع الصوت عن الكلمة زمنا يتنفس فيه عادة بنية استئناف القراءة... والسكت هو عبارة عن قطع الصوت زمنا وهو دون زمن الوقف عادة من غير التنفس"[46]، وقد ذكر السيوطي أن الأئمة قد اختلفوا في ألفاظه ومصطلحاته، فعبر عنه حمزة بسكتة يسيرة، وهو عند الكسائي سكتة من غير إشباع، وقال ابن غلبون: وقفة يسيرة، وقال الجعبري: قطع الصوت زمنا قليلا أقصر من زمن النفس لأنه إن طال صار وقفا[47]. أما النحاة فقد ذكروا السكت تعبيرا عن الوقف في تسميته التي تلحق في الوقف بهاء السكت.

وأما المحدثون فإنهم عالجوا كلا من الوقف والسكت في موضع واحد، بل إنهم لم يولوهما اهتماما وعدوهما من قبيل موسيقى الكلام التي تناولوها في إطار عام تحت ما يسمى بالتنغيم، ولكننا آثرنا أن نفرق بين مفهومي السكت والتنغيم، فإذا كان التنغيم أداء نغميا نستعمله في الموصول من الكلام ويتجلى أثره في نهايات الجمل بما يتخذه في أشكال نغمات تأثرية صاعدة أو هابطة أو ثابتة، فإن السكت قطع للنفس من غير أداء نغمي قطعا خفيفا للفصل بين المعاني، لكن الذي دعا- كما نظن- أكثر اللغويين[48] إلى اعتبار السكت من التنغيم أن جميع هذه الظواهر الصوتية(النبر والسكت والتنغيم) تأتي متزامنة متصاحبة في الفعل الكلامي، لذلك نجد صعوبة كبيرة في تحديد بدايات أو نهايات كل ظاهرة من هذه الظواهر.

وسنحاول من خلال هذه الدراسة أن نشير إلى أهم المواقع النحوية التي يكون للسكت فيها دور في إفهام المعنى، كما أداه الوقف فيما رأينا، في القرآن الكريم، وسنجد أن ظاهرة السكت أو الصمت[49] تعد عنصرا فونولوجيًا هامًا للتفريق بين المعاني أو الأبواب في النحو:

السكت والنحو:

1- بين الخبر والصفة:

من الشائع والمعروف لدى النحاة، أن الأصل في المبتدأ أن يكون نكرة، ولكنه قد يحدث أن يكون هذا المبتدأ معرفة وفي حال اجتماع المبتدأ المعرفة والخبر المعرفة، فإن إشكالا معنويا قد يقع في الجملة، إذ إن الأمر سيختلط علينا في هذا الخبر، هل هو خبر للمبتدأ أم أنه وصف له، ففي جملة مثل:(محمد الكريم)، نحتمل إمكانيتين، إحداهما أن يكون(الكريم) إخبار، والثانية أن يقع(وصفًا)[50]، ولكن الذي سيفرق بين المعنيين والبابين هو كيفية النطق بالجملتين، فإذا نطقت الجملة هكذا: محمد- سكتة- الكريم، فإن المعنى سيكون وسيتحدد في الإخبار، فتصير الجملة إخبارية تامة المعنى، كما تضيف النغمة الهابطة في نهاية الجملة دليلا آخر على هذا المعنى. أما إذا نطقنا الجملة بهذا الشكل: محمد الكريم(دون استعمال للسكت)، مع إضافة تنغيم الآخر بنغمة صاعدة فإن المستمع سيتوقع تتمة لهذا المعنى، وعليه تكون كلمة(الكريم) صفة.

ولذلك أشار علماء العربية إلى هذا الموقف ولم يدعوه بلا ضابط لفظي، فيبقى رهن الأداء الصوتي، بل إنهم أضافوا إليه علامة سموها ضمير الفصل أو العماد فيقال في الجملة الأولى إذا أريد معنى الخبر: محمد هو الكريم.

2- أسلوب الشرط:

يتألف أسلوب الشرط من أركان ثلاثة، الأداة وفعل الشرط وجوابه، ولكننا في حقيقة الأمر نشعر، كأنه يتكون من ركنين فقط، لأن الأداة موصولة بالشرط، فلا إمكانية للسكت بعدها، بينما يمكن ملاحظة هذا السكت بين فعل الشرط وجوابه، وهذه العلامة الصوتية هي من تحدد هذا الجزء تحديدًا بينًا، وهذه السكتة أساس لفهم الفارق بين معنى الشرط ومعنى الاستفهام الذي قد يحصل مع الأداة(من) مثلا، فإذا قلت:(من يأتي معي)، فهذه جملة تحتمل سكتة واحدة هي سكتة النهاية أو الوقف. بينما لو انها كانت بمعنى الشرط لاحتملت سكتتين إحداهما فاصلة بين فعل الشرط والجواب المنتظر والثانية عند النهاية، فأقول من يأتي معي ،سكتة، أكون ممتنا له. لقد قلنا آنفا إن السكتة مميزة لجملة الجواب، ولعل هذا ما نلحظه عندما يتقدم هذا الجواب، إذ لابد من وجود السكت بعده، حتى يظهر تميزه، نقول: أنت مغامر، إذا نزلت إلى هذه البئر، والملاحظ هو هذه السكتة بين جملة الجواب المتقدمة وجملة الشرط، فإنها تبقى فاصلا بين الجملتين، حتى وإن حذفت جملة الشرط ولم يبق إلا الأداة مثل قول الأحوص(من الوافر):

فَطَلِّقْهَا فَلَسْتَ لَهَا بِكُفْءٍ * * * وَإِلّا يَعْلُ مَفْرِقَكَ الحُسَامُ[51]

فزيادة على التنغيم الخاص الذي نطقت به لفظه(إلا) فهناك سكتة بعدها تبين الفارق بين جملة الشرط وجملة الجواب.

3- أسلوب المدح والذم:

يكاد هذا الأسلوب يشابه كثيرا أسلوب الشرط لاحتوائه على عناصر ثلاثة وهي: فعل المدح أو الذم وفاعله والمخصوص بالمدح أو الذم، وهذه الأركان الثلاثة تصير ركنين بواسطة إمكانية السكت، فالإمكانية قائمة بين الفعل وفاعله من جهة والمخصوص من جهة أخرى، نقول: نِعْمَ الرجلُ، أنت، فنلاحظ تقطعا في هذه الجملة إلى جزئين. وقد صار السكت علامة مميزة لمن خُصَّ بهذا المدح، ويبقى هذا التفريق قائما بين عنصري هذه الجملة، لو حدث التقديم والتأخير كأن تقول: أنت- سكت- نعْمَ الرجلُ، ولكي ينقسم الكلام ويفهم منه المدح لابد من هذا التقطع الذي دعوناه سكتا بين أنت وما يليها من جملة(نعْمَ الرجلُ).

4- أسلوب البدل:

ينقسم البدل عند النحاة إلى أربعة أقسام: بدل الكل من الكل، وبدل البعض من الكل، وبدل الاشتمال، والبدل المباين[52] وهذا البدل الأخير يكون على ثلاث صور، لكل صورة اسم، فهو بدل غلط إذا كان سبب مجيئه هو الغلط في المبدل منه، كأن نقول: جاء عمر، زيد لخطأ ارتكبته في تعيين المبدل منه، وهو بدل نسيان إذا كان المتكلم قاصدا المبدل منه ثم نسي، أو أن يكون عنه ساهيا غافلا فنطق بالمبدل منه غير قصد، كقولي: صليت أمس العصر، الظهر في الحديقة، أو أن يكون بدل إضراب، وهو الذي يذكر فيه المبدل منه قصدا، لكن يضرب عنه كأن يقال: سافرت في السيارة، في القطار[53].

وأظهر ما تكون الحاجة إلى السكت في هذه الأنواع من الإبدال، في البدل المباين، ولذلك فقد احتاط النحاة وآثروا أن يؤتى بلفظ يبين عن هذا البدل، وارتضوه أن يكون(بل) التي يضرب بها عن البدل السابق وهذه القرينة مانعة للبس الذي قد يحصل بين البدل والمبدل منه[54] إذا لم تراع السكتة.

ففي جملة مثل: مررت برجل، حمارٍ، على أن البدل(حمار) بدل غلط إذا لم يستعمل فيه القرينة الصوتية التي تفصل بين البدل والمبدل منه، فإن المستمع يتوهم لا محالة أن هذا البدل إنما هو وصف للمبدل منه، ولذلك كون النحاة الأمر باستعمال بل، فيكون لمعنى العطف ولا يكون على معنى الوصف.

أما في الأنواع الأخرى من الإبدال، فإن المتكلم إذا تكلم جاء بالعام أولا ثم خصصه من خلال البدلية، وكي يميز ما هو عام وما هو خاص فإن السكت وما ينضاف إليه من تنغيم كفيلان بأداء ذلك، أقول: شربت الماء، عذبه فقد ذكرت أولا أنني شربت الماء مطلقا وعموما، ثم خصصت هذا المشرب بالعذوبة.

5- في النداء والقسم:

يتضح أمر السكت في هذين البابين جملة الجواب بعدها، فإن قلت: يا عبد الله، أو والله، لأفعَلَنّ عظيما، أمكن تعيين جملة الجواب في هذين الأسلوبين من خلال السكت الواقع في الجملة الأولى بعد المنادى، وفي الثانية بعد القسم، فأقول: يا عبدَ الله- سكت- أقبلْ، وإذا طال المنادى بوصفه ،كان السكت دالا على الجواب: تقول: يا عبد الله ابن الكرام الذين لهم بالمكرمات سوابق، أقبلْ، وأمثلة ما جاء في القرآن الكريم: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا ﴾[55] فكان السكت بين الصديق وأفتنا.

ومما يتضح فيه أهمية السكت لمعرفة الجواب في النداء، قول الحصري القيرواني(من المتدارك):

يَا لَيْلُ الصَّبُ مَتَى غَدُه * * * أَقِيامُ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُ[56]

فإذا كان السكت بعد(ليلُ)، تصير (ليلُ) منادى نكرة مقصودة مبني على الضم، وإذا كان بعد الصب، يصير المنادى مضافا منصوبا، وإذا كان بعد يا، كان المعنى هو التعجب[57].

6- أم المتقطعة:

فيما حكاه سيبويه من قوله:" وذلك قولك: أعمرو عندك أم زيد، فهذا ليس بمنزلة أيهما عندك، ويدل على أن الآخر منقطع من الأول قول الرجل: إنها لَإبلٌ، ثم يقول أم شاءٌ يا قومُ"[58]. فسيبويه إذًا يوضح أن(أم) إذا استعملت بمعنى الانقطاع، فإنه يفصل بينها وبين ما قبلها بسكتة، قد عبر عن هذه السكتة بقوله:(ثم يقول)، فالرجل قال:(إنها لإبل) ثم سكت ثم قال: أم شاء يا قوم.

وقد عدَّ سيبويه(أم) هذه مما جاء في قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُ ﴾[59].

ومما ورد في قول كثير عزة(من الطويل):

أَلَيْسَ أَبِي النَضْرُ أَمْ لَيْسَ وَالِدِي * * * لِكُلِ نَجِيبٍ مِنْ خَزَاعَةَ أَزْهَرَا[60]

7- همزة إن بين الكسرة والفتح:

إن الوصل أو السكت هما الدلالتان الصوتيتان اللازمتان لفهم ما يتصل بالموضوع فتح همزة(إن) أو كسرها[61]، فالكسر في الهمزة مصاحب أبدا للسكت قبلها، ودليل الكسر هو اعتبار هذه همزة في بدء الكلام.

على حين أن الفتح دلالة الوصل أو انتفاء السكت، ففي جملة مثل:(قال: إن الله يأتي بالشمس من المشرق)[62] تبين أن هذه الجملة هي مقول قول إبراهيم(عليه السلام) في محاورته، أما إذا كان الأمر حكاية وليس مقولا حقيقيا، فإنا نلحظ أن الهمزة تكون مفتوحة، وعندها لا يكون السكت لازما بين الفعل(قال) وما بعدها غير لائق لأن الكلام محكي، وإذا تهيأ لنا تصور الموقفين معا، أي الحكاية والقول المباشر، أمكن أن يكون الفتح أو الكسر، قال الراجز:

أَوْ تَحْلِفِي بِرَبِّكِ العَلِيِّ * * * أَنِّي أَبُو ذَيَّالِكِ الصَّبِي[63]

فالكسر حاصل باعتبار أن الجملة(اني أبو ذيالك الصبي) جملة جواب القسم، أما الفتح فعلى حكاية القسم وعندها فإنه لا يستحق جوابا.

8- في حروف العطف:

أو ما يعرف عند النحاة بالنسق، فإن هذه الحروف إذا جاءت بين جمل أدت معاني كثيرة، كالاشتراك أو التعقيب أو الإضراب أو الاستدراك أو غيرها... والسكت يكاد يكون ملازما لهذه الأحرف ففي مثل: جاء محمد ثم غادرنا خالد، يلاحظ أنه لابد من وجود سكت بين الجملتين سابق لحرف العطف، وتختلف مدة السكت باختلاف الحرف فيكون الزمن مع(ثم) أطول من مع الفاء، والفاء تختص بعطف ما لا يكون صلة لعدم وجود ربط على ما يصلح أن يكون. والمثال الذي يقدمه النحاة لهذا هو:

الذِي يَطِيرُ فَيَغْضَبُ زَيْدٌ الذُّبَابُ[64]

وبإمكاننا تفسير المعاني في هذه الجملة بتغير موقع السكت فيها. فإذا قلنا:

الذي يطير- سكت- فيغضب زيد- سكت- الذباب، كان هذا هو المعنى المقصود والنطق بهذه الجملة يجب أن يكون على هذا النحو. ولا يكون: الذي يطير- سكت- فيغضب زيد الذباب.

حتى لا يلتبس وصف زيد بالذباب، ولا يكون أيضا: الذي يطير فمغضب زيد- سكت- الذباب، لأن الجملة مشوشة المعنى لا تستقيم.

9- في النعت المقطوع:

ذكر النحاة أن النعت إذا قطع عن المنعوت خرج عن كونه نعتا وأصبح جزء من جملة أخرى، عدوها جملة استئنائية، وإذا حدث هذا الأمر كان هذا النعت خبرا لمبتدأ محذوف، أو مفعولا به لفعل محذوف، ففي قولنا: هذا محمد الكريم، أمكن قطع النعت من خلال السكت فتصير الجملة: هذا محمد- سكت- الكريم، ويصير الكريم خبرا في جملة استئنائية مبتدأها محذوف تقديره هو، أي(هو الكريم). فالسكت إذا حولنا من باب نحوي إلى باب آخر.

ب/ السكت والألغاز النحوية:

لأن السكت ظاهرة صوتية مقامية، قد لا يتفطن إليها الكثير من الناس، فالنحاة استعملوا- كما استعملوا كثيرا من المواقف المشكلة- في تلغيزاتهم النحوية، ومما أورده ابن هشام في ألغازه قول الفرزدق(من الكامل):

هَيْهَاتَ قَدْ سَفِهَتْ أُمَيَّةُ رَأْيَهَا * * * وَاسْتَجْهَلَتْ سُفَهَاؤُهَا حُلَمَاؤُهَا

حَرْبٌ تَرَدَّدَ بَيْنَهَا بِتَشَاجُرٍ * * * قَدْ كَفَّرَتْ آبَاؤُهَا أَبْنَاؤُهَا

وموقع التلغيز في(استجهلت سفهاؤها حلماؤها) و(كفرت آباؤها أبناؤها)، وكان الأولى والأصح أن ينصب فيقول(حلماءها) ويقول(أبناءها) أو العكس. بإعمال الفعلين، ولكن الصحيح هو أن الشاعر أراد أن ينزه بي أمية عن الجهل وقلة الرأي، ولذلك وجب أن يكون السكت على(استجهلت) ثم الابتداء(سفهاؤها حلماؤها) وفيه المدح، ومثله كذلك بعد كفرت، فيكون:

هيهات قد سفهت أمية رأيها واستجهلت- سكتة- سفهاؤها حلماؤها

حرب تردد بينها بتشاجر قد كفرت- سكتة- آباؤها أبناؤها

وهو شبيه بما قاله اليزيدي للكسائي: لا يكون العير مهرا لا يكون- سكت- المهر مهر.

ومن أمثلة ذلك أيضا قول الشاعر(من الخفيف):

صِلْ حِبَالي قَدْ سَئِمْتَ الجَفاءَ * * * يَا قَتُولِي واحْفَظْ عَلَيَّ الإِخَاءَ(65)

فظاهره يقتضي نصب(الإخاء) على أنه معمول(احفظ) ولكن الصحيح هو أن يؤتى بسكت بعد(واحفظ) وتكون الجملة(على الإخاء) مستأنفة.

ومن أمثلته أيضا قول الشاعر(من الطويل):

أَلاَ طَرَقَتْنَا مِنْ سُعَادَ الطَّوارِقُ * * * فَأَرَّقْنَ مِنَّا مُسْتَهامٌ وَعَاشِقُ(66)

فقد رفع(مستهام وعاشق) وحقها النصب على أنهما مفعولين للفعل(أرَّقن)، والصواب أنه يجب أن يسكت بعد(فأرقن) ثم يبدأ(منا مستهام وعاشق) مبتدأ وخبرا.

فأرقن- سكت- منا مستهام وعاشق.

وبقى بعد هذا نشير إلى أن وظيفة السكت في الكلام المسموع يمكن أن نؤديها علامات الترقيم في الكلام المكتوب، فالنقطة والفاصلة والفاصلة المنقوطة والنقطتان جميعها تؤدي أدوارا صوتية... فهذا ما أمكن جمعه عن ظاهرة السكت في الأبواب النحوية، وكما لاحظنا فإنها تتداخل مع ظواهر أخرى كالتنغيم والنبر.

الهوامش:

(1) الإتقان في علوم القرآن، 110/1.

(2) النشر في القراءات العشر، 22/1. وينظر: الإتقان، 109/1.

(3) النشر، 224/1، 225.

(4) الإتقان في علوم القرآن، 115/1.

(5) الإتقان، 111/1.

(6) ينظر: النشر، 225/1، 226.

(7) الزركشي، البرهان في علوم القرآن تح محمد أبو الفضل ابراهيم، دار الفكر العربي، ط 3، سنة 1980، ج 1، ص 350.

(8) ينظر: الإتقان، 111/1. والبرهان، 351/1.

(9) البرهان، 351/1.

(10) الزمخشري، الكشاف، دار الفكر،(د، ت)، المجلد الرابع، ص 303.

(11) سورة المائدة، آية 17.

(12) الإتقان، 112/1.

(13) البرهان، 343/1.

(14) الإتقان، 110/1.

(15) سورة الكهف، آية 01.

(16) سورة يونس، آية 65.

(17) النشر، 232/1، والبرهان، 345/1.

(18) سورة يوسف، آية 24.

(19) البرهان، 346/1.

(20) سورة يوسف، آية 29.

(21) سورة آل عمران، آية 07.

(22) ينظر: النشر، 232/1.

(23) سورة يوسف، آية 92.

(24) سورة البقرة، آية 116.

(25) البرهان، 348/1.

(26) النشر، 231/1.

(27) المصدر نفسه، ص 226، وينظر: الإتقان، 115/1.

(28) الإتقان، 115/1، والبرهان، 350/1.

(29) لغة تميم، ص 356.

(30) المحيط في أصوات اللغة، 61/1.

(31) شرح ابن عقيل على الألفية، 431/2.

(32) من أسرار اللغة، ص 226.

(33) المصدر نفسه، ص 231.

(34) من أسرار اللغة، ص 226.

(35) الخصائص، 17/1.

(36) سورة الحاقة، آية 28، 29.

(37) سورة الأنعام، آية 90.

(38) سورة البقرة، آية 259.

(39) من أسرار اللغة، ص 224.

(40) أثر القراءات والأصوات في النحو العربي، ص 371.

(41) من أسرار اللغة، ص 225.

(42) المحيط في أصوات العربية، 63/1.

(43) الإتقان، 117/1.

(44) المحيط في أصوات العربية، 63/1.

(45) الإتقان، 117/1، 118.

(46) الإتقان، 117/1، 118.

(47) المصدر نفسه، 115/1، 116.

(48) الأستاذ كمال بشر، في كتابه علم اللغة، قسم الأصوات، ص 147. وأحمد كشك، في كتابه من وظائف الصوت اللغوي ينظر: ص 52 وما بعدها.

(49) المصطلح هو للأستاذ محمود السعران، ينظر: علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، ص 219.

(50) ينظر: علم اللغة، الأصوات، ص 247، 248.

(51) الديوان، ص 190.

(52) النحو الوافي، 670/3.

(53) المصدر نفسه، 671/3.

(54) ينظر: المقتصد في شرح الإيضاح، 935/2، والنحو الوافي، 673/3.

(55) سورة يوسف، آية 46.

(56) محمد رضوان الداية، لمختار في الشعر الأندلسي، دار الفكر- دمشق، ط 3،سنة 1992،ص 249.

(57) ينظر: من وظائف الصوت اللغوي، ص 112.

(58) الكتاب، 172/3.

(59) سورة السجدة، آية 01، 02، 03.

(60) ينظر: الكتاب، 174/3.

(61) من وظائف الصوت اللغوي، ص 109.

(62) سورة البقرة، آية 258.

(63) شرح ابن عقيل، 302/1. الرجز منسوب إلى رؤبة وأوله: لتعقدن مقعد القصي * * * مني ذي القاذورة المقلي.

(64) المصدر نفسه، 193/2.

(65) ينظر: المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(66) الإلغاز النحوي وأمن اللبس، ص 38.